

# الثقافة والمثقف

للاستاذ الدكتور منصور فهمي

هذا موضوع طريف البحث ، أملا به الأستاذ الدكتور منصور فهمي منذ شهر تقريبا ، وقد طالت اليه الجامعة الأمريكية أن يحاضرها فيه . فألقى الأستاذ خلاصة منه بقاعة يورث التذكارية بتاريخ ٥ مايو سنة ١٩٣١ تحت عنوان ( كيف يلوح الرجل المثقف )  
وها نحن أولاء ننشر بعض ما حصلنا عليه من المذكرات التي أخذناها من الدكتور  
المحرر

كلمة ثقافة من الكلمات ذات الصور الرائعة التي تسكن إليها النفس ،  
والعبارات الشائعة التي أضحت من مستلزمات العصر . لهذا أود أن أتحدث حول  
معنى الثقافة والمثقفين من الناس ، وإن معنى الثقافة وصور المثقفين لمن أعلى  
المعاني وأروع الصور ، وفضلا عن ذلك فأنا الكاتب الذي تتاح له فرصة الكتابة  
في موضوع يتعلق بالإنسان كالذي نحن بصدده — يكون أقرب إلى نفوس من  
يتحدث إليهم أكثر من يتحدث في أمر لا يرتبط بالإنسان ذاتا . ومهما يكن من  
اهتمام العقول بكل أمر وكل موضوع فإن اهتمامها يبدو أشد بكل ما يتعلق  
بالإنسان وللإنسان ، ولقد أصاب الفيلسوف الفرنسي (أوجوست كومت)  
إدجعل العلوم الاجتماعية أو علوم الإنسان في أعلى الدرج العلى ، وليس ذلك  
لشدة تشعب هذه العلوم وجدتها ولا لتعقيدها وحاجتها لقوة التفكير فحسب  
بل لأن موضوعها هو الكائن الذي له في نظر نفسه أسمى مركز في الوجود

على أنني إذا كنت أقبل معالجة هذا الموضوع بالاغتباط ، فأنتى لا أستطيع  
أن أخفى على نفسى الصعوبات التي تظهر عند البحث فيه ، وذلك لأن كلمات :  
الثقافة والمثقف وما إليها ، كلمات استعملت حديثا للدلالة على معان

جديدة كانت من خلق هذا الزمن الحديث وحاجاته . فمن نيف وثلاثين عاما وضع الألمان كلمة ثقافة في لغتهم الأدبية بجانب كلمة حضارة ليستدلوا بالأولى على النواحي الأدبية والمعنوية التي يحرص الإنسان على تمجيدها والانتفاع بها ، وليستدلوا بالكلمة الثانية على النواحي الصناعية والفنية التي أتجها العلم والتي تحرص الإنسانية على الاستمتاع بها ، وعلى أثر ذلك دخلت لفظة ثقافة في البلاد اللاتينية والبلاد الأوروبية الأخرى بشيء من الشدة والمقاومة حتى استقرت العبارة في التواضع والاستعمال ليستدل بها على النواحي الأدبية في مدينة من المدن

وعند احتكاك الأمم العربية بالأمم الغربية ولغاتها وآدابها ، دخلت هذه اللفظة في العربية من نحو عشر سنين تقريبا ، ويرجع الفضل في إدخالها إلى طائفة من الكتاب المعاصرين . كنت أود أن أتأكد من معرفة أول واضع لها لأنوه باسمه وعلى كل حال فإن كلمة ثقافة على جدة مدلولها سواء أ كانت باللغات الأفرنجية أو العربية فأنها قديمة من حيث هي حروف ومخارج أصوات

وشأن الكلمات شأن الكائنات الحية ، فقد تطور في معانيها بمعنى أنها تدل على ما لم تكن لتدل عليه تماما في زمن سابق

لو كان ماير بذهنك من المعاني يصور إدراك الأمور على حقيقتها في إتقان لكان لك أن تقنع في حاجات التخاطب بكلمات التعلم والمتعلم وما إليها . ولو كان مرادك تصوير المعاني التي يشار بها إلي المهارة والحدق لكان لك أن تستخدم لفظ الفطنة

وقد استخدمت عبارة الثقافة في ذلك المعنى ، وفي معنى الظفر فقال ابن دريد : ثقفت الشيء حذفته . وقال الله تعالى « واقتلوهم حيث ثقفتهم » وقد استعملت لفظة الثقافة في وقت ما ليستدل بها على اللعب بالسيف قال الشاعر :

وكان لمع بروقها في الجو أسياف المثاقف

وقد استخدمت لفظة « الثقافة » لآلة تقوم بها الرماح إذا عوجت . لكن

شيئاً من ذلك كله لا يراد من عبارة ثقافة في هذا العصر ، وفي لغتنا العربية التي تفاهمها في الأدب والكتابة وإنما يراد شيء آخر ، فأذا قال إنسان عن آخر إنه مثقف فانما يريد بذلك أن يصور للمخاطب صورة خاصة ليست هي صورة المتعلم ، ولا صورة الفطن ، ولا صورة الفاهم ، ولا صورة الظاهر فحسب ، ولكنها صورة أخرى نريد أن نحددها تحديداً حتى تظهر بعينها وفي حدودها ، عند ما نلفظ لفظة الثقافة ، أو ما يشق منها

ويخيل إلى أن أفضل أسلوب لتحديد الصورة الذهنية لمعنى الثقافة الجديد ، وضبطه في أذهان المتعاملين بهذا اللفظ - يخيل إلى أن خير أسلوب في ذلك هو أن يبين ما الذي تدل عليه عبارة المثقف عند أهل الغرب ، وكيف تلوح عندهم صورة الإنسان المثقف ، وبما أننا قد اقتبسنا اللفظة عنهم فإن المعنى المراد بها إذا هو متحد على نحو ما حدده الغريون يصبح آمناً من القوضى في إدراك المعنى وحقيقته . فمن هو الرجل المثقف إذن عند الغريين ؟

إذا كان هذا اللفظ كما أسلفنا هو من الألفاظ المتراع عليها في العصر الحاضر ليستدل به على معانٍ صدرت عن هذا العصر دون غيره ، فمن الخير أن نبحث في أجلى المميزات الأدبية للعصر الحاضر ، لكي نتبين منها ما استوجب استعمال لفظ الثقافة لمعان جاء بها هذا العصر .

من أهم ما يمتاز به العصر الحالى أن حياته تقوم على نشر التعليم وتعميمه باتخاذ الوسائل الكثيرة المؤدية لذلك ونقص ما يتعلم ذلك العمل الإنسانى المبذول على أسلوب يحفظ للانسانية أهم الطرائق التفكيرية التي تمكن الناس من الانتفاع بالجهود المتواصلة المثمرة والتي قامت بها الأجيال المتعاقبة والعقول المتتابعة بما فيه خير البشر منذ عرف البشر لنفسه تاريخاً

وإن هذا التعليم الذى يرشد الإنسان لاستخدام متوجات الفكر البشرى أصبحت تقوم به معاهد العلم المنتشرة فى أكثر البلاد المتمدية ، والتي تساعد

فى ذلك وسائل النشر المختلفة من صحافة ونشرات ودوريات وما إلى ذلك من وسائل الأذاعة المختلفة

وقد أخذت معاهد العلم تقوم بمهمة تعميم التعليم وفق منهاج مترابط الأوصال، بحيث أصبح من العسير أن يتفقه العقل فى جزء من أجزاء حلقة المعلومات دون معونة من الحلقة الأخرى، ولكى تستفع العقول بمجهودات تاريخ الفكر البشرى كان لابد للمرء أن يحصل على أهم أجزاء تلك السلسلة العلمية التى هى الوسيلة للتثقيف، وذلك يكون عند نهايات التعليم الثانوى وبدايات التعليم العالى، أو بعبارة أخرى عند ما يبلغ الإنسان سن الرشد ويدخل فى الميدان الذى يؤهله للتخصص فى عمل من الأعمال. وإن هذا العصر الذى نعيش فيه وتجلى فيه المدنية الحاضرة تمتد أصوله إلى الماضى البعيد. فإذا أريد إدراك روح هذا العصر أو الألام به من ماضيه وحاضره كان لابد من أن يتعلم الإنسان ما هو متصل بذلك الماضى، وما هو متصل بهذا الحاضر. لذلك حرص الغربيون على أن يلقنوا أبناءهم المتعلمين تاريخ المدينيات المختلفة التى أثرت فى مدينة الغرب، ومن ثم قادم لشدة العناية بتعلم اليونانية واللاتينية لما كان لليونان والرومان من أثر فى حياة المدنية الغربية الحاضرة

ومن ثم كان الاهتمام بلغات اليونان والرومان وآدابهما، للارتفاع بما فى الأديين أو بما فى المدينتين من خير يحتاج إليه الإنسان من حيث هو إنسان وفى حرص أوروبا على تعليم آداب اليونان والرومان لناشئها، ما يدل على أن فى هاتين المدينتين جانباً إنسانياً خالصاً لا يستغنى عنه، ورغم تعاقب السنين لم يكن للخلف أن يهمل هذا الجانب أو يقرط فيه لصالحه وقوته. فأساليب المراثى، والمآسى، والقصص، والخطابة، والفلسفة، والعلم. كل ذلك قديماً بما نمواً قويا فى مدينة اليونان، وانتقل إلى مدينة الرومان التى لم ترفع منه إلا الأثر المحلى فاصطنع الرومان أساليب اليونان لأنفسهم، ثم دخل العصر الحديث مع القرن السابع عشر فأخذ الغربيون ما استخلصه الرومان من مناهج اليونان فى التفكير

والآداب ونقى أهل هذا العصر تلك الأساليب من صبغاتها المحلية ليستبقوا منها العام الشائع

وفي العصر الحديث ظهر تمجيد العقل : فديكارت لا يعتمد إلا عليه في نقده ومنهجه ، ولا روشفو كولد لا يعتمد إلا عليه في معرفة الدوافع الخلقية ، وباسكال يؤيد الدين بالعقل ، وبوسويه يفلسف في التاريخ معتمدا على العقل ، وبوالو يعتمد العقل في نقده للآداب ، وفينيلون يبحث عن خير أساليب الحكم والحكومات معتمدا على توجيه العقل وجهوده ، ومولير يستخدم العقل والنقد العقلي لرسم الرذائل الفاشية وفهم عيوب الناس

والخلاصة إذن مما تقدم هي أن الأركان التي تقوم عليها صورة التهذيب الفكرى . أو التشقيف الذهنى عند الغربيين تنحصر فى معرفة السبل التي يرى العقل أن لا يتجاوزها لغيرها ليصل إلى غايته من إدراك حقائق الأمور ، وهذه السبل تتجلى أولا في الإلمام بمجهودات العقل في الماضي ، تلك المجهودات التي تتجلى عند الغربيين في الخلاصات الدقيقة لفلسفة اليونان والرومان وآدابهما ، ثانيا في الإلمام بالحياة الحاضرة على ما هي عليه بمعنى أن يدرك المرء أهم الحقائق التي كشف عنها العقل وأقرها العلم

على أننا لو نظرنا إلى خلاصة المجهودات الفكرية عند اليونان والرومان في أوج عزهم لوجدنا أنها تنتهى إلى تسامى العقل للتفكير ، وتسامى الذوق ليحس بالجمال والفن الجميل ، وتسامى السلوك عن أن ينحرف في مهاوى الشر . وإن في تسامى العقل والذوق والإرادة معنى تسامى النفس البشرية

وعلى ذلك فأن مطمع التعاليم المهذبة المثقفة في دور التعليم الثانوى على ما ينبغي أن يكون عليه التعليم الثانوى ، هو أن يعمل على ما فيه رفعة النفس وما فيه طريق إلى طبيعتها الإنسانية العالية ، وأن تعرف الإنسان أهم أصول العلم ، وتطبيقاته الفنية التي تسهل بها أساليب الحياة وتترفع

تلك هي إذن أصول التعاليم المثقفة . ولا يصح أن يسمى الإنسان مثقفا إلا إذا كان ذا إلمام بهذه الأصول ؟

(للبحث بقية)